مقال

# حرب التضليل بالمصطلحات

د.عبد الله حاتم

مركز الشيخ
علي الغريّاني للكتاب

من أشهر سُبل التضليل أن يتلاعب المرء بالكلمات والمصطلحات حتى يمرر أفكارا جديدة في أذهان المستمعين، أو ليغيّر أفكارهم القديمة ويستبدلها بأفكار جديدة، أو أن يُحوّل نفورهم من سلوك معين إلى قَبول واستحسان، وهذا من جملة ما يُسمى في السجال العقائدي بـ (حرب المصطلحات).

## ◆ حرب المصطلحات في نصوص الوحي

تَكثُر في نصوص القرآن الكريم عبارة (أسماء سميتموها) في غير موضع، ومن ذلك على سبيل المثال، قوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ} [النجم: 23]، وقوله تعالى {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ} [الأعراف: 71]. وقوله: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: 40]

إن تَلقِيبَ الآلهة المعبودة من دون الله بأنها مجرد (أسماء مسمّاة) يعني أن الموجود المُتجه إليه بالخشوع والخضوع هو في حقيقته محض عدم، وأنه لم يرتقِ من المخلوقية إلى الخالقية حقًّا، ولكن الإنسان هو من رفعه وقدسّه عندما غيّر من اسمه! وهذا الجهد البسيط في تغيير الأسامي ترتب عليه الشرك بالله ونحت طرق جديدة للضلال؛ إذ إن تغيير المصطلحات والتلاعب بالمسميات يُوهِم ويَخدع، فيحوّل العدم إلى وجود، والحقير إلى عظيم، واللاشيء إلى شيء!

وفي نصوص السُنّة الشريفة، تكثر الأحاديث التي تبدأ بصغية (أتدرون ما كذا)، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (أتدرون ما الغيبة..) [أخرجه مسلم في الصحيح] وقوله: (أتدرون من المفلس ..) [أخرجه مسلم في الصحيح]، وكانت إجابات الصحابة تدور في إطار لغوي أو عُرفي، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أنار بصيرتنا وإياهم بالإشارة للمعاني الشرعية، حيث إن إعادة تعريف الكلمة الشائعة بالتعريف الشرعي بجانب التعريف اللغوي ينتشل العقول من دائرة الثقافة المجتمعية والعُرف السائد إلى تعريف جديد مغاير ومختلف.

بناءً على ذلك، يمكن أن تتغير موازين المرء في الحُكم على الأشياء لأن مسمّياتها قد تَغيّرت، فتتغير التصورات بناء على عقيدة الإسلام ومركزياتها الكبرى.

## تأثير المصطلحات في العقائد والسلوكيات

من بين سُبُل تغيير الأفكار عبر المصطلحات ما يلي:

### ◆ تسمية اللاشيء باسم

إن تسميّة اللاشيء باسم جديد لا وجود له في ذاكرة البشر، يعني أن هناك طريقًا إلى سراب يتم تمهيده والاعتناء به. وعلى سبيل المثال، قد يُعرّف المرء إنكار الوجود الإلهي بـ (الإلحاد)، وفي الوقت ذاته قد يسمع مصطلحات أخرى من (الفلسفة العدَمّية)، أو (الفلسفة الوجودية)، أو (الفلسفة المادية)، ولو قرأ المرء في تلك الفلسفات بتريّث وتمعّن وما فيها من صبّ التركيز على المادة وإنكار الميتافيزقا والغيبيات، لوجد أنه يقف أمام الإلحاد وجهًا لوجه، بلا فرق! إلا أن الاسم الجديد يوهم الإنسان أنه شيء مغاير ومختلف وجديد، في حين أنه مجرد وجه جديد لنفس العملة.

فقد تفهم المعنى بكلمة (إلحاد)، وقد تتبع سبل المصطلحات الجديدة حتى توصلك لنفس خط النهاية ونفس المعنى وهو (الإلحاد)؛ إذ إن مدار هذه المصطلحات الجديدة يَصُبّ في نفس الحقل الدلالي للكلمة الأولى، إلا أن المصطلح الأول ناصح أمين يدلك على المعنى مباشرة، أما المصطلح الجديد فهو خادع ماكر يَعِدُك بأن يقدّم لك معنىً فريدًا وجديدًا، ولكن تكتشف أنه يوصلك إلى نفس خط النهاية بعد أمد من مضيعة وقتك!

### ◆ تغيير المُسمى للتعظيم

إن الشيء التافه قد تُضفَى عليه هالة من العظمة والقداسة لو تغير اسمه لمصطلح معقّد، على سبيل المثال، فإن علم الأحياء -مثل سائر العلوم المادية- يقوم على التراكمية، أي أن العلم الحديث يتراكم على المكتشفات السالفة حتى يتوسّع العلم ويتطوّر. فطبيعي أن تزداد المسميات الجديدة لأن هناك مكتشفات حديثة لم يُعلم بها.

ولكن العديد من الظواهر القديمة في الأحياء تم تغيير اسمها بعدما تم إقحام التطور الداروينى في أغلب المقررات الدراسية على مستوى العالم. فتحول مفهوم (التكيّف - Adaptation) عند الكائن الحي إلى اسم (التطور المصغّر أو المايكروي - Microevolution). فأصبح التكيّف المعروف على مدار القرون الأخيرة يُدرَّس على أنه جزء من عملية التطوّر ككل؛ وذلك لأن التطور المصغّر يخلفه (التطور الشامل أو الكبير الماكروي - Macroevolution) بحسب نظرية التطور.

إن تغيير المصطلح هنا ليس إلا استبدالا للاسم القديم باسم جديد لتهويل وتعظيم من شأن الظاهرة المعروفة، حتى يتم التمهيد لمبادئ التطور الداروينى في عقل الطالب.

## ◆ تغيير المسمى للتحقير

إن الموضوع الجاد قد يفقد جِديّته لو تغير اسمه إلى مسمى يحقر من شأنه، ووُصِف بوصف يسفه مِن قيمته. فعلى مدار التاريخ البشري، كان المترفون يُميّعون جدية الدين وخطاب الأنبياء بتهمه أنه (أساطير الأولين). فيتحول القول الفصل، الذي ما هو بالهزل، إلى مجرد أفكار موروثة وقصص قديمة تَسَلّت بها الأجيال. وتتحول الأخبار الحق إلى مجرد (أساطير). فلا يؤخذ الدين إثر ذلك بجدية، بل يكون في الإعراض عنه راحة للبال وموت ضمير. ومن هنا، قد يفقد الشيء العظيم هيبته لأن المصطلح الذي يعبر عنه لا يقابله في نفس مستوى الجدية. ولأن الاسم الذي لُقب به لا يعكس قدر أهمية الموضوع وعظمته.

## ◆ تغيير المسمى لتغيير السلوكيات

إن السلوك العام عند أي مجتمع يُحكم في المقام الأول بالعقل الجمعي والعرف العام؛ إذ إن البيئات التي تُقنن الانحراف يُجهر فيها بالسوء والفساد، والبيئات التي تُحرم الانحراف لا وجود فيها للانحرافات إلا في الغُرف المغلقة، وبناءً عليه، يؤدّي عرف المجتمع دورًا كبيرًا في رسم الخطوط الحمراء وحمل الناس على الالتزام بها وعدم تجاوزها. وتلك الخطوط الحمراء تنبع من الدين أولًا، ثم من التقاليد المتوارثة في الأُسَر ثانيًا. فتُعرّف السلوكيات على أنها نبيلة أو حقيرة على حسب ذلك الدين والعرف.

ومـن هنـا، يصعب إقناع جماعة من البشـر بفعل ما محظـور عندهم، مهما كان ممتعًـا وموافقًـا لأهوائهـم، ولكن قد يتم الترويج لنفـس الفعل المُحرم بتسـميته باسـم جديد، فتزول الحساسـية تجاه الفعل، ويجري الاستسـلام للنـزوة دون وخـز الضمير. وذلك لأن العقل ينفر تلقائيا من المصطلحات التي بُرمـج علـى رفضهـا، ويبدأ في قبـول نفس الفعـل لو عرض عليـه بمصطلح جديد لا ماضـيَ له معه!

علـى سـبيل المثـال، عندمـا خرجـت أوروبـا مـن هيمنة المسـيحية إلى ميوعة العلمانيـة. انتشـر الزنـا بشـكل فاحـش، وذلـك لأن المجتمـع اختُرق بمفاهيـم جديدة مغايرة للمسـيحية، فلم يعد يطلَق على (الزنا) ذلك الاسـم، بـل اتُّخِـذَ له مسـميات عديـدة، وأصبـح مـن الممكـن أن يقيم الرجـل علاقة صداقة مع امرأة ثم يقيمان علاقة جنسية عابرة من آن إلى آخر دون الاعتراف بعلاقـة جـادة، ويُعتـرَف مجتمعيًّـا بهـذه الفوضـى الجنسـية تحـت مسـمى (Friends with benefits). أي أن تحويـل مسـمى (الجنـس خـارج الـزواج) من "زنـا" إلى اسـم جديد ورنّـان، يعني أن الحساسـية النفسـية تجـاه الفعل قد زالـت. وأنّ وُعّـاظ الدين الذين يحرمـون الفعل لن يصلوا للجمهـور بعد الآن، لأن الجمهـور الـذي غيّر اسـم المحرمـات لم يعُد يشـعر أنـه المخاطب!

ومـن هنـا، يحدثنا الرسـول صلى الله عليه وسـلم عن خطورة تغيير أسـامي المحرمـات بأسـامي جديدة مغايرة للمصطلح الشـرعي، ولعلّنا نلتمس ذلك فـي قوله (يَشـرَبُ نَاسٌ مـن أُمَّتي الخَمـرَ، ويُسـمُّونَها بغَيرِ اسـمها) [أخرجه أحمد وابن ماجـه وغيرهم]

## ◆ النجاة من التضليل

فـي الزمـن المعاصر الذي ينفجـر بالمعلومـات، لا بد للقـارئ أن يتحلى بقدر لازمٍ مـن التفكيـر الناقـد، وألّا يـردد المصطلحات المسـموعة بشـكل أعمى، وألّا يعجـب بزخـرف القول دون البحث الجاد حول مصـدر المصطلح وأول من أطلقـه والهـدف من ورائه، حيث إن تغيير الأسـماء والتلاعـب بالمصطلحات قـد يبـدو حدثـا هينـا في ظاهـر الأمـر، إلا أنه بنـاء عليه قـد يتحوّل الحـرام إلى مستسـاغ، والحقيـر إلى عظيم، والعظيـم إلى حقير، والمخلـوق المقهور إلى معبـود مـن دون الله! فاحرِص علـى نجاتك وسـلامة قلبك وعقلك.